

أو السعادة . ونشدانها ... فالكليون ينشدونها في الجهل
والزهد والتعشق والقورينيون ينشدونها في اللذة ، واللذة
الحسية بنوع خاص - وهو ما يذهب إليه معظم متصوفة المشرق ،
- هدام الله - والميجاريون ينشدونها في التأمل الفلسفي ،
ثم وقفنا من أفلاطون أمام نالوته العجيب : المادة ، والمثل .
والله ، وما كان من اضطراب أرسطو في تصور ذات الله ، هل له
وجود مشخص مستقل ، أو هو صورة مجردة معنوية ؟

استعرضنا هذه الآراء اليونانية لنتثبت أن نظرية وحدة
الوجود ليست شيئاً جاء به محمد أو تضمنه الإسلام ، لأنها إنك
لم ينته الفلاسفة من شأنه إلى شيء يطعن إليه قلب أو يؤمن به
عقل ، ولأن الإسلام دين الفطرة ودين الاستقرار يأتي أن يسلم
الناس لفوضى لا ضابط لها ولا خير للأمام فيها ، وأن محمداً صلى الله
عليه وسلم حين نهى الناس عن التفكير في ذات الله ، وأمرهم
بإدمان التفكير في مخلوقاته ، كان الحكيم الأعظم الذي يهدي
للرشد ويجنب الأمة مفاوي الضلالات ، وإن أخذنا أخذ
رسول الله ليس دعوة إلى الجود والحجر على حرية الفكر ،
ولكنها دعوة ضد الباطل الذي ندعى إليه ولا خير
لنا فيه ... بل هي تصرفنا عن الجد الذي تأخذ به
أمم العالم نفسها إلى هذا العبث الذي يضحك الدنيا بأسرها
علينا ، ويجعلنا موضع سخريتها وازدراءها ... لقد أمرنا
بنينا بالتفكير في مخلوقات الله لنستثمر تفكيرنا في مخلوقاته في
صنع مدنيتنا وتوفير سعادتنا ، ولو قد عرف رسول الله خيراً
في التفكير في ذات الله لما صن به علينا ، ولكنه أشفق على
هذا العقل البشري الذي لم يطلع من أسرار الوجود إلا على
أفق محدود لا يعتد به ... أشفق عليه من مثل هذا الضلال
الذي انتهى إليه الفلاسفة من بحثهم في ذات الله ... أليس
حسبنا أن نقل أن هذا الوجود الغائي الجميل لا يمكن أن يكون
موجوداً بنفسه ، ألم ندرس علم طبقات الأرض وعلم الفلك وعلم
الحياة وعلم النفس ؟ أي مقدار عجيب من المعرفة هدتنا إليه هذه
العلوم ؟ أكل هذا السحر العلمي المعجز شيء لم يهبنا إياه إله
حكيم قادر ؟ ثم هذه الوحدة الوجودية التي يهرف بها عقل
المخرفون : هل لها عقل ؟ وهل ترى وتسمع ، وهل هي مادة

رسائل التعليقات للرفاعي

« كلمة أميرة »

للأستاذ دريني خشبة

وبعد ، فقد عرضنا على القراء في كلتنا الأولى عن هذه
الرسائل آراء الأستاذ الرفاعي التي يلحد بها في الله وفي الإسلام
والتي نقلتها الرسالة عن الأستاذ أمين الريحاني ، عن الرفاعي
سنة ١٩٣٥ ؛ ثم عرضنا في كلتنا الثانية طائفة من آرائه تلك ،
أوردها في كتابه الجديد الذي علق به على كتابي الدكتور
زكي مبارك : التصوف الإسلامي والنثر الفني ، ومن بين هذه
الآراء إيمانه المطلق بوحدة الوجود وما يبنى على هذه الوحدة من
آثار أخلاقية هدامة ، ثم رأيه في تأليف القرآن ، والأدعية
(ومنها الصلاة) ، والبعث ، والجبر ، وتساوي المتضادات من
خير وشر ، وتقوى وبؤس ، وترهب وخلاعة . ثم إنكاره للثواب
والمقاب على النحو الذي جاء به الإسلام . ثم دعوته المسلمين
إلى الأخذ بآرائه إن أرادوا أن يكون لهم مجد ، أو أرادوا بين
الأمم مقاماً محموداً . ثم أئبنا في كلتنا الثالثة فساد ما ذهب إليه
الأستاذ من أن نظرية وحدة الوجود هي شيء من صنع الرسول
الكريم ، لم يعرفها العالم إلا حينما جاء بها محمد . ثم ما كان من
اهتداء متصوفة المسلمين إليها بعد محمد بقرن أو قرنين من الزمان .
أئبنا في كلتنا الثالثة فساد هذا الزعم لأن نظرية وحدة الوجود
فكرة تردت في الفلسفة اليونانية ، فقد قال بها إجزوفانس
Xenophanes الذي كان يؤمن بالحلول ، وأشرنا إلى ما كان
يزعمه هرقليطس من التقاء المتضادات وتساوي الخير والشر
وجميع التناقضات بناء على ذلك ، لأن التناقض في زعمه ، هو
في نظرنا فقط ، وذلك وما قبله هو لباب نظرية وحدة الوجود
وأشرنا كذلك إلى ما ذهب إليه أناجوراس Anaxagoras
من تعدد العناصر ووجود قوة ماقلة - ال Noös حالة في الكون
متحدة به ، تتولى تحريكه وتنظيمه - ثم أئبنا على ما انقسم إليه
تلاميذ سقراط من بعده من حيث نظرة كل منهم إلى الفضيلة

صرفة أو روح صرف ، أو مادة وروح ؟ ثم ما قيمة نظرية خاتبة لا تفرق بين الخير والشر ، وبين الأبيض والأسود ، وبين التقوى والدعارة ، وبين الزهد والחסع ، وبين الفضيحة والرذيلة ، وبين السجود بين يدي الله ، وإكباب المرء على حيلته ؟ ما هذا البلاء الذي يدعونا المأفونون إليه ، ويزعمون أن عدم أخذنا به ووقوعنا فيه هو سبب تخلفنا وعاة تأخرنا ؟ ما ذا يريد هؤلاء ؟ يريدون أن تكون الدنيا داراً واسعة شاسعة يعمرها قوم من المجاذيب ؟ هل فرغنا من استكناه أسرار خلق الله ، فلم يمد إلا التفكير في ذات الله ؟ هل انتسنا على أمراضنا فشفيناها ، وعلى مشكلات الفقر والجوع والجهل فحققناها ، وعلى استئصال الشر من النفس الإنسانية فتمننا الحروب وعالجنا الآفات ؟ هل عرفنا سر الكهرباء ؟ هل امتدنا إلى (ذات ا) المغناطيس و (ذات ا) الضوء و (ذات ا) أنفسنا فلم يمد إلا أن نهتدي إلى ذات الله ! وهل يعقل أن ندرس الهندسة الفرائضية ونحن الاندرى شيئاً عن الهندسة النظرية ، أو حساب الثلثات ونحن نخطئ الجمع والطرح !

أليس يكفي أن تكون هذه النظرية قائمة على ذلك الخيال الأخلاقى ليثبت أنها فاسدة ، وأنها لا بد أن تكون تامة يتعلل بها المؤمنون لستر نواحي الضعف في أديهم النهار ، وسلوكهم المريض ، وخلقهم المعتل ؟ إنهم مثل القورينيين من تلامذة سقراط ، ينشدون اللذة ، واللذة الحسية الحسية على وجه الخصوص ، وانفاسهم هذا الذم في المذات هو الذي جعل أذهانهم تتبلد ، وأرواحهم تصدأ ، وتقكيرهم يسف ، فراحوا يوهون هوامم أن الخير والشر سواء ، وأن التقى والدعارة صنوان ، وأن المسير واحد ، وأن سبب تأخر الأمم الإسلامية وتخلفها هو هذا التعفف الذي لا موجب له ، وهذا الفهم السيئ لما جاء به محمد من شريعة أخذناها بحرفيتها ولم نعبث بها فخورناها وأولناها ، وفهمنا ثلاثة أرباع هذا القرآن الكريم على أنه آيات تمثيلية يخوف بها الله ، فهو — سبحانه وتعالى عن هذا البهتان —

يقصد بظاهرها الأمين ، ثم جعل لها باطناً لا يعرفه إلا الراضون في علم وحدة الوجود من الزنادقة الذين انصلت نفوسهم بنفس إبليس الأكبر ، ولم تندمج في الله ... أو في الوجود الكلي كما يكذبون ويبهرجون ويلفقون

وبعد أيضاً ...

— فحسبنا أن تأتي على نظرية وحدة الوجود من جهتها الأخلاقية هذه لنها تنهار من أساسها ، فترجح أنفسنا من تكرار ما قاله ابن حزم والشهرستاني ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وأبو منصور عبد القاهر البغدادي في توهينها ثم تكذيبها وتبيان زيفها ، مما هو مذكور مشهور ، ومما يسهل على كل قارى أن يرجع إليه ليرى كيف حارب علماؤنا الأعلام تلك الفئة الباغية ... ثم تريح أنفسنا من الرد على المكذبين بالوحى وبالقرآن ، المتحللين من شريعة الله السمحاء التي يتخذونها هزواً ، ويعلمون الغرور فيأبون أن يؤمنوا كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يفهمون

وحسبنا أيضاً أن تنبه إلى ما يقع فيه هؤلاء الأنجاس من أخس ألوان الحب الحسى والانحراف الشديد التندر في هذا الحب مما تقرأ أخباره عن أئمتهم وأقطابهم ، مما أورد بعضه أبو عبد الله الزنجاني في أطروحته ، وما نجد أخباره في الكشكول وروضة المحبين وديوان الصبابة وتزيين الأسواق وتليب إبليس وبتيمة الدهر وكتاب الكنايات ... ودفاع الصديق الأعز الدكتور زكي عن الصوفية في هذا الميدان — وهو من البقع التي ذكرت في حديثي الأول — لن يفهم شيئاً — فقد شوى جلودهم فيما يتعلق باستنتاجاتهم الخبيثة في التقاء المتناقضات وتساويها في نظرية وحدة الوجود ، وقد هاجمهم غير مرة ، ولا سيما في باب التجريد

— وحسبنا أن تنبه مرة ثانية إلى أن وقوعهم في المربقات الحسية هو الذي جعلهم يلتمسون تبريراً لها بقولهم إن الشريعة للموام والحقيقة للخواص أى لهم ، ورحم الله ابن القيم فقد